



٤ العلاقات الانسانية: نحن والغرب

للدكتور: اسماعيل راجي الفاروقي

استاذ الاسلاميات وتاريخ الاديان بجامعة تامبل
ورئيس رابطة العلماء الاجتماعيين المسلمين بأمريكا

العلاقات الانسانية: نحن والغرب

للدكتور: اسماعيل راجي الفاروقي
أستاذ الاسلاميات وتاريخ الاديان بجامعة تامبل
ورئيس رابطة العلماء الاجتماعيين بأمريكا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أيها الاخوة الكرام

يغزونا

الفكر الغربي في هذا العصر شر غزو، ويدخل إلى وعينا بشتى السبل. فيحل محل الفكر الإسلامي العريق بعد أن يقتحمه، لا يضعف في الفكر الإسلامي، بل يضعف فينا بسبب جهلنا بالاسلام كنظام فكري وقلة وعينا الحضاري. إلا أن هذا الفكر الغربي الذي يجذبنا، مريض فاسد رغم سعة انتشاره في العالم. تعالوا نستعرض معا، **ونتبين الجرم الذي ترتكبه الأمة الإسلامية كل يوم بقذفها بأبنائها إلى الغرب ليستقوا منه العلوم وأسباب الحضارة، فيعرضون أدمغتهم للغسل، ويصبحون للغرب الثقافي إن لم** يكن للغرب السياسي، كاريكاتورات واتباعا مخربين للوعي الاسلامي داخل الأمة.

■ فلسفة العلاقات الانسانية في الغرب:

تقوم العلاقات الانسانية في العالم الغربي على أساس واحد هو الشك كمذهب عام. يقول هذا المذهب:

١ ـ لا شيء يعرف حقيقة سوى الظواهر الطبيعية. وفي العلاقات الانسانية، الظاهرة الطبيعية هي **الرغبة**.
٢ ـ الظواهر الأخلاقية لا تعرف حقيقة. فهي دائما وأبدا مشكوك فيها لا يعرف فيها شر حق ولا خير حق.
٣ ـ لا يجوز لانسان أن يدعي أن سلوكا ما خير من سلوك آخر الا اذا أدى ذلك السلوك إلى اشباع رغبة من رغباته هو دون الآخرين.

يستنتج الغرب من هذه المبادىء الثلاثة أن العلاقة بين الإنسان والإنسان يجب أن تبنى على **احترام رغبات الفرد**. فهي وحدها حقيقة. ويعتقد انه لا جدال في الذوق ولا جدال في الأخلاق ولا في سلوك الفرد والجماعة لأن هذه المجالات كلها لا تعرف حقيقة فيها. فكل دعوة ادعاء. وكل اقناع غسل دماغ. وكل سلوك اجتماعي قهر وسيطرة. ولكل انسان ما رأى وما رغب بدون حساب أو عتاب. فالرغبة لا تُضبط بمبدأ بل تُسيطر عليها رغبة أخرى، سواء من الشخص ذاته أو من الأشخاص الآخرين. **وحياة الفرد حرب دائمة الرحى يشنها الإنسان ضد نفسه، وضد ذويه، وضد قومه**. كما أن حياة الجماعة حرب يشنها الحاكم ضد المحكومين وتشنها الجماعة ضد الجماعات الأخرى.

دعمت مبدأ التشكك الأخلاقي وما استنتجه من الفكر الغربي من مبادىء سلوكية **حركة كبرى عمرها ألفا سنة**. بل لعل هذه الحركة كانت هي مصدره. وهي على كل حال سبب نموه وازدهاره. هذه الحركة هي المسيحية. **لقد باركت المسيحية مذهب الشك الأخلاقي** ظنا منها بأنه يحقق أغراضها. قالت المسيحية **على لسان بولس**، ومازالت تردد على **لسان كارل بارط وبل تيليش والمجمع الفاتيكاني الثاني**، أن الانسان مخلوق ساقط، بنيت جبلته على الاثم والعدوان والمنكر، لا أمل ولا جدوى من اجتهاده وعمله. فحياته كلها كتلة من الخطيئة

والفجور، والمجتمع ليس الا ميدان الشيطان. أرادت المسيحية أن تبرهن على ألوهية المسيح فرأت انه يلزم للاقتناع بعملية التخليص التي قام بها الاله بتجسمه في المسيح وصلبه ان يكون الانسان عاجزا عن تخليص نفسه بفعله. لذلك حطت من قدر الانسان ونفت الاخلاق من سلوكه فاتفقت مع مبدأ الشك بان سلوك الانسان لا حقيقة معنوية أو قيمية فيه.

***

الغرب ثلاثة أنظمة أقامها على أساس من مبدأ الشك:

الفوضوية والليبرالية الانجلوسكسونية والشيوعية. مازالت الأنظمة الثلاثة قائمة وان غيرت أثوابها من عصر إلى عصر.

■ الفوضوية:

قامت في أول عهدها تحت تأثيرالمسيحية المباشر. فالمسيحية أبت أن تشرع للسلوك الجماعي، **وتركته للشيطان قيصر**، لأن الحياة الاجتماعية في نظرها، مقطوع منها. وأبت أن تشرع للسلوك الفردي لأنه ميدان الرغبة، والرغبة شر في ذاتها. فلا رأي للمسيحية إلا التنكر للرغبة ومحاربتها والانعزال عن الجماعة. وهذه هي الرهبانية التي ابتدعتها مثالا للسلوك البشري. وترك السلوك الانساني بلا شريعة دعوة إلى الفوضوية.

أما اليوم **فالفوضوية المسيحية تقلصت والرهبانية تكاد تنقرض**. الرهبان يتزوجون ويحششون، يرتعون ويلهون، يسعون ويرتزقون. والراهبات يلبسن الملابس الجذابة ويتحلين ويتزوجن ويخلفن. كلما تقدمت الحضارة الغربية في بلد مسيحي يزداد ابتعادا عن الرهبانية.

حل محل الرهبانية حركة أخرى هي الوجودية. ابتداء من رمي الحياة الانسانية بالشر والإثم أكدت الوجودية أن لا أمل يرجى من حياة الانسان لأنها لا خير فيها. بل هي مليئة بالألم والحزن والأسى وتنتهي بموت أكيد. وسعي الانسان لن يرى لأنه كله غرور. **فالوجود مأزق** يجب التخلص منه ولا خلاص

الا بـالارتمـاء في أحضـان المسيـح، الالـه المخلص. ويبقى السلوك الفـردي والجماعي بلا شريعة، وهي الفـوضويـة. والتسلسل منـطقي: فاذا كـان الدين خروجا من مأزق الوجود، فلا حاجة لـلاعتناء بـالمأزق. ليـذهب به قيـاصرة إلى حيث ألقت.

***

■ **الليبرالية:**

ولـدت عمليا **داخـل صراع الملكيـة البريـطانية مـع الشعب** في القـرنـين السادس عشر والسابع عشر. وولدت نـظريا عـلى يدي **طـوماس هـوبز وجـون ستيوارت مل وجـون لوك** منـذ قرنـين. تقوم الليبـرالية عـلى الشك **بـأن علاقـة الانسان بالانسان فيها حقيقة أخلاقية أو قيمية**. فابتداء منـه، تعارض الليبـرالية كل امتداد لتأثير الانسان في الانسان الآخر. فالانسان ذات تحيا في رغباتهـا، لا يدخلها مؤثر الا هتكها. وكـون الرغبـة، أو الطبيعـة، الحقيقة الـوحيدة، تـأليه للرغبة لانه ينفي وجـود الحقيقة المعنـوية أو القيميـة التي هي وحدهـا قادرة عـلى تطويع الحقيقة الطبيعية. **فالموجود الذي لا وجود لغيره، إله في ملكوته.**

لكن التناقض بين رغبات الانسان وغيره يؤدي إلى القتل. والقتـل انتهاء للذات الراغبة. اذا لا مانع من منع القتل، ويسمـح لكل شيء دونـه، أي دون العنف المادي الظاهر، أن يأخذ مجراه. فاستمرار النظام الذي لا يؤثر فيه انسـان على انسان، واستمرار الانسان نفسه، يتطلب حماية الانسان من أعدائه. فالمبـرر الـوحيد لإيجـاد نظام وشـريعة وحكم سيـاسي **هو المحـافظة عـلى سلامـة الفـرد وحـريته في اشبـاع رغباتـه**. لذلـك نشأت الليبـرالية، ونشـأت معها الـدساتـير ونظريات حقوق الانسان، درجات في تقييد الرعاة وشل تسلطهم على الرعايا.

أما الفرد، فاذا أثر فرد آخر في سلوكـه فهذا تـدخل، بـل نقض لشخصية المؤثر فيه. **فالمبدأ الأساسي هو عدم شرعية التأثير**. فالرغبة وحيدة، وكوحيـدة في الوجود، هي الالـه الذي يجب أن يحتـرم. أما التـطبيق، فمراده المحـافظة عـلى حـرية الفـرد فقط. لذلـك لا تدخـل في حريـة الفرد الا لمنعـه من تحقيق رغبتـه بـالعنف الظاهـر. وان كان كـل تغيير اكـراه، الا ان هنالـك اكراه بعنف ظـاهر

واكراه خفي. ولا يجوز التشريع الا لمنع الظاهر فقط. ان تداخل رغبات الأفـراد في بعضها البعض يحتم تقييد التشـريع. **فكـل من آنس في نفسه الـرغبة للتـأثير على الآخرين كان له ذلك بشرط أن لا يلجأ إلى العنف الظاهر**. والحكومة المثلى هي التي لا تحكم الا بـالقليل الاقـل الـلازم ـ أي منـع العنف ـ ولا تتـدخـل في تحقيق رغبات الأفراد. ذلك ان الرغبات تنسب إلى أصحابها فقط، فلا دعوة ولا سلوك ولا خير ولا شر تعرف حقيقته. الخير والشر متروكان للحكم الفردي.

وإن سألت الليبرالية عن الجماعـة، قالت: الجمـاعة كـالفرد تمـاما. لهـا رغبات ـ هي المصالح السياسية والاقتصادية والعسكريـة. **وهي حقائق «يـابسة»** أي أولية لا سبيل لانكـارها. وهي وحـدها طبيعيـة وحقيقية. إن تضـاربت مع حقيقة يابسة لامة اخرى، كان لا مناص من اكراه الـواحدة لـلاخرى. فـاما أن يكون الإكراه عنيفا ـ وهي الحرب ـ واما أن يكون غير عنيف ـ وهي المفاوضة.

فالقومية مبنية عـلى هذا الأسـاس: ان رغبة القـوم هي وحدهـا الحقيقة. لذلك يجب أن تشبع بأي ثمن. فتنافس الأفراد كتنافس الأقوام. كـلاهما طبيعي إن أدى إلى عنف يجب أن تنتصر الجمـاعـة عـلى أعـدائهـا. فـالحـرب سنـة، لا تتجنب إلا لنجـاح سبيـل آخـر يحقق نفس الغـرض ـ أي إشبـاع رغبـة الامـة، بطريق غير ذي عنف ـ طريق التفاوض. لهـذا لم يكن بد للحكـومات الليبـرالية من محـاربـة بعضهـا البعض، ومن استعمـار من لا حـول لـه ولا قـوة من الأمم الأخرى.

ولم ينشـأ عندهم أي فكـر عن القانـون الدولي اطـلاقا قبـل جروشس في القـرن السابـع عشر. الا ان القانـون نفسه لم يـوضع الا بعـد الحرب العـالميـة الأولى. وها هي هيئة الأمم المتحدة نفسها في عصرنا تقوم أساسـا على مبـدأ منع العنف الظاهر، وتبيح إشباع الرغبات مهـما كانت. فقط في الحقبتـين أو الثلاث الأخيرات، قامت هيئة الأمم بإسداء بعض الخدمات في الثقافة والعناية بالأطفال والأغذية، لا على سبيل الفرض الواجب، بـل المصلحة المشتـركة القـائمة عـلى الرغبة، والرغبة ما زالت الإله الأوحد.

*

■الشيوعية:

تقوم الشيوعية، كما قامت الليبرالية الانجلوسكسونية، على مبدأ الشك، أي تأليه الرغبات بجعلها الحقيقة الوحيدة، وبالتالي، باعتبارها أي الرغبات معيارا نهائيا لكل ما هو خير وشر. الا انها تختلف عن الليبرالية بأنها لا تعترف برغبات الفرد بقدر اعترافها برغبات الجماعة. والجماعة عندها، ليست القوم بل الطبقة. فالشيوعية نظام تجنيدي Regimentational بالضرورة لأن لرغبة الطبقة عندها أولويةكبرى، لا تنسق رغبات الافراد معها بل تنقضي وتنكر. لذلك كان تصور علاقة الانسان بالانسان في الشيوعية إن العامل زميل العامل أنى وجد، وانهما مجندان لخوض حرب ضرورية مع طبقة الرأسماليين المتسلطة، وان حالة الصراع هذه حالة دائمة إلى أن تبيد الطبقة الطبقة الأخرى.

***

النتائج :

أدى مذهب الشك إلى نتائج طيبة واخرى وخيمة. **أما الطيبة فثلاث:**

○ **الأولى**، احترام الذات الإنسانية وحمايتها من كل معتد، فالحق يجب أن يقال وهو أن نظام الشك، حقق للانسان حقوقا جليلة، وان كان تعريفهم للانسان بالمواطن، أي بفرد القوم، لا الانسان عامة. يتمتع الفرد في البلاد الليبرالية بحرية كبيرة وتحترم الحكومة ذاته أشد الاحترام.

○ **الثانية: إن تأليه الرغبات واحترام الذات شد في أواصر القربى بين المواطن والمواطن** وحثهما وعيُها بضرورة إشباع رغباتها على التعاون المنتج الفعال سواء كان التعاون تطوعي كما في الليبرالية بدافع القربى القومية أو إكراهي بدافع القومية الفاشستية أو تجنيدي بدافع مصلحة الطبقة، وذلك دائماً بقصد الانقضاض معاً على فريستها أي فريسة المواطنين، حتى يقضيان عليها ويفترسانها ويشبعان رغباتها.

○ **الثالثة: تأليه الرغبات واحترام الذات جعل من المجتمع الغربي**

مجتمع نمور. لا يعتدي النمر على النمر بل على فريسته. فكلاهما موجهان إلى الفريسة بطبيعة تأليه رغباتها. فالفريسة الأولى هي الطبيعة. لذلك انقض الغربيون على الطبيعة انقضاضاً، ففكوا رموزها وطوعوها لخدمتهم بعد إذ سيطروا عليها. فالطبيعة في نظرهم عدو ضعيف، عدو تمكنوا من افتراسه. وما زال الغربيون ينظرون إلى الطبيعة نظرة المتعطش، المتأهب، المفترس. وقد فجرت هذه النظرة ينابيع المعرفة الطبيعية فنشأت العلوم وترعرت. ثم تفننوا في استغلال الطبيعة ـ وهو ما يعرف بالتقنية. وقد سبقوا المسلمين في هذا المضمار سبقاً ظاهراً. **هذه هي النتائج الطيبة.**

***

أما **النتائج الخبيثة فهي أيضاً ثلاث**، تقابل النتائج الطيبة بل تضارعها.

○ **أولاً**: غلا الغرب في رعاية الذات الإنسانية وحمايتها بأن ألّهها وجعلها وحدها الحقيقة، فأصبح إشباع رغباتها هو معيار الخير والشر.

صحيح أن هذا من جهة هو **تأليه الإنسان** ورفع شأنه. إلا أنه من جهة أخرى، **هو مسخ للإنسان** باقصائه عن الله، وعن ملكوت القيم والأخلاق. فالقيم والأخلاق أيضاً فطرة وطبيعة في الإنسان دون أن تكون مادة كالجسم والحركة والرغبة. ولله، سبحانه وتعالى، حق، موجود، فعَّال لما يريد. وكل من الله والقيمة والذي يجب أن يكون، يعرف حقاً، يعرف يقيناً يعرف اختبارياً. وذلك بطريقين، طريق الوحي المنزّل من السماء وطريق التعقل.

فبنفي هذا الملكوت من الحقائق، تصور الغربي نفسه بأنه شبكة من الرغبات المتناقضة، المتصارعة، المتنافسة، الطاغية حيناً والمطغى عليها حيناً آخر، دون مبدأ أو معيار يُرجع إليه في حل خلافاتها. لذلك قسمه صراعُها وتطاحُنها على نفسه، فأصبح ما رمزت إليه **شخصية الدكتور فاوست المسرحية**، منازعاً عليه من قبل الخير والشر **دون أمل في حل أو خلاص**. «Two souls, alas, dwell within my breast!» **أي «روحان، ويا للخسارة، تقيمان في صدري»**. واقنع هذا المذهب الرجل الغربي بأن مصيره كمصير الإغريق، وآلهة الالمان، لا شك سائر إلى الهلاك. وكان هذا **المصير المأساوي** نفسه المادة الأولى

لفنه في الرسم والنحت والأدب والموسيقى. وأصبحت التراجيديا أو المأساة عنواناً له. وهذا المصير هو نفسه يناقض الأساس الذي بني عليه. فالرغبة لا يمكن أن ترغب عدمها.

○ ثانياً: غلا الغرب هنا أيضاً في تأكيد أواصر القربى بين الجماعة، سواء كانت جماعة القوم أو جماعة الطبقة. فولّى الولاء كله للجماعة واعتبرها قوماً أو عنصراً لا يعلوا على مصلحته شيء، وإن كان مبدأ الجماعة نفسه مبني على مبدأ رغبة الفرد. فالغلو في القربى يُناقض الغلو في رغبة الفرد. ثم غلا الغرب أيضاً في إقصاء علاقات الجماعة بالجماعات الأخرى عن ملكوت الله والقيم والأخلاق، وغلا في حصر الحقيقة في رغبة الجماعة فكانت الحروب المستمرة نتيجة هذا الغلو، واستعمار الأمم لبعضها البعض، وصراع الطبقات كل هذا دون أي مبدأ أو معيار يعلو على رغبة الجماعة فتقاس به، أو تُحلُّ به مشكلات الأمم دون قتل أو قهر.

عرف الغرب عصبيتين: عصبية القوم على الفرد وعصبية القوم على القوم، أدت الأولى إلى انحسار الشخصية الفردية بضرورة تطبعها بطابع الجماعة إلى أن أصبحت التربية عندهم لا معنى لها سوى:

* التوحد الكيفي الإجتماعي	* Homogenization
* التكامل الإجتماعي	* Adjustment
* التشبه الإجتماعي	* Socialization
* التثقف الإجتماعي	* Acculturation

وأصبح الشذوذ عن الجماعة شراً وإن أصاب الفرد وأخطأت الجماعة. وأدت الثانية، أي عصبية القوم على القوم، إلى استعمار الإنسان لأخيه الإنسان بالجملة، أي بالملايين. أين من يقيس العذاب الذي ابتلى به ملايين وأجيال من البشر على يد الاستعمار الغربي؟ فكلا العصبيتان كانتا بلاءً وخروجاً على الأخلاق والدين.

○ ثالثاً: غلا الغرب في استغلاله للطبيعة. فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على كافة أنواعها وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأكيد الرغبات

ومنع العنف ضد الزملاء النمور أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة، أي إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي، دون معيار يعلو على الطبيعة والرغبات معاً ويخضعهما لقيمه وأوزانه. **فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب مما أدى بدوره إلى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول.** ومن يدري حتى الآن إن هدد. . . الغاز المحبوس في العلب المعبأة تحت الضغط طبقة الأوزون في الجو مما سينتج داء السرطان في جلود البشر أجمع بتعرضهم لأشعة الشمس المكشوفة؟ السيول الجرارة من الكيماويات التي تلقي بها الصناعة في البحار وتؤدي إلى تكوين البلانكتون مما يؤدي بدوره إلى انعدام الحياة في البحار وانعدام مصدر اكثر من نصف الأوكسجين المتوفر في العالم؟

اخترع الغرب مؤخراً علماً جديداً اسمه Eeology علم التوازن الطبيعي. **ولكنه وضع والقصد منه،** هو كيف يساعد الإنسان في استغلاله لقوى الطبيعة. فالإنسان الغربي مصرٌ على الإستغلال حتى بالعلم الذي وضعه هو لحمايته من الإستغلال. وهذا هو قمة التناقض.

ومع أننا لا ننكر المثالية التي يوجبها تقدم العلوم في إسعاد الإنسان **نحن نعيب الغرب على تنمية الجشع في الإنسان إلى درجة التبذير.** وللجشع والتبذير نتائج غير نهب الطبيعة واختلال التوازن، تلك هي اختلال التوازن في الإنسان بين طبيعته المادية وطبيعته المعنوية. أليس مسخاً للإنسان أن تُحدِّث الرجل الغربي عن القيم فيسألك عن الثمن؟ وتُحدثه عن الآخرة فلا يفقه لها معنى سوى ميزان الأرباح والخسائر الذي سيقدمه في نهاية السنة لمحصِّل ضريبة الدخل؟

ومع أننا لا ننكر الإنجازات الهائلة التي حققها الغرب في تفجير طاقات بشرية هائلة كانت كامنة غير مستعملة وسيّرها لإسعاده **نُعيب عليه إشعال نيران الحروب والصراع الطبقي.** فحروب الإستعمار شنت لفرض الإستعمار على الشعوب وما زالت تشن للتخلص منه، لا تعرف لها نهاية. وحروب الطبقات شنت وما زالت إلى أن تبيد الطبقة الواحدة الأخرى. وهي كلها قائمة على التناقض. **والتناقض** قائم على خطأ المبادىء الأساسية لنظرية العلاقات الإنسانية.

فلا يغرنا أن تطبيق المبادىء الخاطئة أنجز انجازات كبرى، من مفاخرها المساواة بين الأفراد وإخضاع السلطان السياسي لحكمة المحكومين وانتقال السلطة - الخادمة وليس المخدومة - من يد إلى يد دون عنف مادي ظاهر. بل **نعترف بأنه لم يتحقق لنا نحن المسلمين خلال القرون الخمسة الماضية ما حققته هذه المبادىء الخاطئة.** لكن ذلك لا يعود للإسلام ذاته **بل لنقص في إسلام كل منا.** على كل حال لا تغرنا إنجازات الغرب لأننا لا نعرف أن كل ما أقيم على الفساد فهو فاسد وإن طال أجله. ومصير الحضارة الغربية المبنية على أساس الشك أصبح ظاهراً. **الحضارة الغربية متصدعة، مقبلة على إنهيار تام كما يقول عظماء مفكريها مثل توينبي وماكنيل وفان ليفن لا لضعفٍ في قوتها بل لفساد** أساسها. وهذا وليم ماكنيل، رئيس دائرة التاريخ في جامعة شيكاغو وإبن العلامة اللاهوتي الشهير يقول في نهاية كتابه The rise of the west «إزدهار الحضارة الغربية».

«إن الحضارة الغربية اليوم، **وفي الطور الأخير** من أطوار حياتها، لأشبه بالضبع الذي بلغ في افتراسه وانتهاكه لكل ما هو معنوي، واعتدائه على تراث السلف، وعلى كل مقدس ومحترم، **لأشبه بالضبع الذي أغاص مخلبه في أمعائه فانتزعها** من مكانها وأخذ يفترسها ويعضها ويلوكها بين فكيه بمنتهى البغض والغيظ والتشفي».

***

الاسلام والعلاقات الانسانية :

سؤال يواجهنا: والآن، إن لم يصلح لنا الغرب مثالاً نقتدي به، فبماذا نقتدي؟

● **الجواب:** نقتدي بإسلامنا، الذي اقتدى به أسلافنا فسعدوا وأسعدوا. نقتدي لا بتطبيق المسلمين خلال قرون الوهن والتأخر بل بتطبيق المسلمين في صدر الإسلام، في فجره وضحاه.

نقتدي بفحوى الإسلام، التي هي فوق نسبيات كل زمان ومكان.

نقتدي بالتوحيد، أي بأن لا إله إلا الله، ديناً وثقافة، شرعة ومنهاجاً.
نقتدي بالتوحيد قانوناً معرفياً وجمالياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً.

فما هي المبادىء التي تتفرع من التوحيد والتي تقوم عليها العلاقات بين البشر؟

١ **الظاهرة الطبيعية حقيقة لا تنكر قط**. لكنها ليست كل ما في الوجود فالوجود ليس كله مادة محسوسة خاضعة لقوانين المعرفة الحسية. **هنالك ملكوت واسع من الظواهر المعنوية**. فالقيم لا تُحسّ ولكنها موجودة بوجود أقوى وأغنى من وجود الأشياء. فهي فاعلة محركة بينما الأشياء والطبيعة جامدة محرَّكة وليس صحيحاً أن القيم لا تعرف يقيناً. بلى، فإن لها علماً لا يقل شأنه عن العلوم الطبيعية، له ضوابطه ومنهجه، وله أحكامه، وله تاريخ حافل طويل.

فَسَخَ الغرب الوجود إلى طبيعة محسوسة فحسب **على أثر محاربته للكنيسة** وما فرضته عليه تعسفاً من مبادىء لاهوتية مناهضة للعقل ومبادىء أخلاقية مناهضة للطبيعة. **فألّه الغرب الطبيعة** تماماً كما ألّهت الكنيسة نفسها. أما التوحيد فلا كنيسة نحاربها ولا مناهضة للطبيعة نداويها بدائها. بل تعقل وإيجابية وتقدير للطبيعة، وإحساس فطري بالحقائق المعنوية والقيم.

٢ **إن رغبات الإنسان لأحوج ظواهر الطبيعة إلى الانقياد بالقيم المعنوية**، لأنها أميلها إلى **الطغيان**، وإفساد نفسها بنفسها كلما تعدت الحدود التي ترسمها لها القيم. لذلك، يوجب التوحيد علينا أن نلجم رغباتنا بلجام القيم، أن لا نشبعها إلا بعد التأكد من أن إشباعها المطلوب لا ينتهك قيمة ولا يتعدى حداً. **فالشريعة ليست إلا تطبيق القيم على الظواهر الطبيعية**. وهي حقة وصادقة مرتين: مرة بالتنزيل ومرة بالعقل. فهي تعرف يقيناً، ولذلك هي خير معيار لكل شيء.

وليست الطبيعة شراً كما ادعت المسيحية، بل خيراً. فالشر لا يكمن

فيها، بل في استعمالها. لذلك بارك الله لنا فيها وأوصانا بعدم الغلو فيها. وهذه هي فحوى الروحانية: لا أن يتجرد الإنسان عن المادة بل أن يطلبها ضمن قوانين وحدود مستمدة من ملكوت القيم. فليست السعادة الإسلامية سعادة إشباع رغبات، بل سعادة تحقيق الذات كلها من رغبة طبيعية وشوق روحي. وهذا الانقياد للقيم لا ينطبق على الفرد فحسب بل على الجماعة أيضاً. فلا سلطان للجماعة على الفرد إلا بحق، ولا علاقة بين الجماعة والجماعات الأخرى إلا خاضعة لشريعة القيم. فلا حرب ولا سلام ولا استقرار ولا استثمان إلا بحق. فرفاهية الجماعة حق، لكنها لا تحقق على حساب الجماعات الأخرى، ولا تنهب الطبيعة وتغتصب في سبيلها لأن الله هو خالقها وسيدها وهو مُسخرها لنا ضمن حدود القيم. فلا سيطرة للإنسان على الطبيعة ولا تنافس عليها مع أخيه الإنسان. إنما استثمار للطبيعة بتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان وبالتواصي والتآخي والمعروف.

[٣] كيف يتصور التوحيد رجله؟

■ **يتصور الغرب رجله كقلعة محاطة بسور ضخم وأبراج مدججة بالمدافع. إذا جاءها خارجي،** تصدت له بالمدافع. فإن استسلم لها فتحت له الباب وأدخلته إلى حظيرتها وإلا أفنته. ذلك أن قانونها لا ينبع إلا من ذاتها. وذاتها هي رغباتها. تحقيقها ـ أي الرغبات ـ استقلال وسعادة؛ وتدخل الخارجي فيها اعتداء. والحرية هي تمتع هذه القلعة بانعزالها عن القلعات الأخرى إلا ما انصاع إليها ووقع تحت سيطرتها سواء كان طبيعة أم بشراً أم جماعة.

□ **ويتصور التوحيد رجله بأنه صحن مفتوح الجوانب على العالم أجمع.** يُصدر إشعاعه في كل اتجاه. فمن انتفع به أصبح قريباً له، وأحب التعاون معه ومساعدته كي يكون هو صحناً مشِعّاً آخر. ومن لم ينتفع بإشعاعه، لا يعزل بل يلاحق إلى أن ينتفع. ورجل التوحيد مقيد بالقيم الصادرة عن توحيده، يصوم ويفطر، يتزوج وينعم، يصلي ويجاهد، يناجي ربه ويبني مدناً وصناعة، سعيد في الدنيا والآخرة، في ذاته وفي الآخرين، في بني قومه وفي الغرباء عنه.

■ **ويتصور الغرب رجله** في علاقاته بغيره بأنها شر لازم، لأن الأصل في

العلاقة استقلال الذات. لذلك يرى الغرب أن لا بد للإنسان إذا ما فُرضت عليه العلاقات مع الآخرين، **أن يوازن بين مصلحته ومصالحهم المتضاربة. وهذه هي فسلفة التربية السائدة في الغرب** Education as adjustment فعلى المربي أن يجعل المربىّ مدركاً لتعديات الآخرين كي يعدل استراتيجيته في تحقيق رغباته بما يحميه من تلك التعديات ويعفيه من التصديات.

فالسلام عنده، كما هو عند كسنجر، ليس إلا توازن القوى Balance of powers بينما يتصور التوحيد رجله في علاقاته بغيره بأنه يتحرك وينفعل معهم لا ليُحدث لنفسه التعديلات اللازمة (لأن نفسه معدلة بالتوحيد) بل لكي يُحدث في غيره إيجابياً. فيقلب أوضاع الغير من جوع إلى شبع، ومن جهل إلى علم، ومن عدم أمن إلى طمأنينة، ومن بشاعة إلى جمال. وكذلك الحكومة الإسلامية، فهي بخلاف الحكومة الليبرالية التي تؤثر أقل فأقل، **تؤثر في رعاياها وفي الأمم الأخرى أكثر فأكثر لكن إلى الأحسن**، إلى الأحسن الذي يحقق القيم أكثر فأكثر. فمفخرة الغرب بالحكومة التي تحرص على عدم التدخل في شؤون رعاياها ـ إلا ما تعرض منها لعنف مادي ظاهر ـ تقابلها وتعلو عليها مفخرة التوحيد بالحكومة التي تحرص على التدخل لتحمل رعاياها إلى الجنة على أكتافها ـ على حد تعبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

■ **وأخيراً يتصور الغرب رجله بأنه المبدع الذي يصدر الجمال عن ذاته.** فما الجمال إلا تعبير الإنسان عن ذاته، عن طبيعته ورغباته وطموحه وآلامه وشقائه وأحلامه. فهي الآلهة، كما عرفها الإغريق القدماء من قبلُ، وعرفها الغرب منذ عصر النهضة.

□ **بينما يتصور التوحيد رجله بأنه المكتشف، لا المبدع.** واكتشافه هو اكتشاف المعاني الكامنة في القيم، الأبعاد المترتبة في أوامر الله، السنن القائمة في المخلوقات كلها. وهو في اكتشافاته لها لا يرجو إلا لقاء ربه. فالرؤيا هي هدفه، لا ذاته. منها ينبع الجمال كله. ولها تصبو نفسه.

■ **يهيج الغربي عند يقينه بأن لا إله إلا هو، بطبيعته ورغباته فيندفع إلى** تحقيقها ليؤكد لنفسه أنه ليس ما قالت عنه المسيحية، بل هو القادر على كل شيء

لأن كـل ما فيـه آلهي . بهذه الـرؤيا، يتفجـر الغربي نشـاطاً وعـزيمة للسـطو على الدنيا. ويبقى هائجاً إلى أن يتحطم على صخرة التناقض، على أنغام فاجنر.

□ ويهيج المسلم الموحِّد عند يقينه بأن لا إله إلا الله، وبأنـه خليفة الله في الأرض ليحقق إرادة الله وأوامـره في البشر أجمع، لا إكـراهـاً وقهـراً وسـطواً بـل اقناعاً ونصحاً وتعاوناً وصبراً. فإذا غاب عنه هذا اليقـين أو غطتـه الغيوم، رقـد وجمُد وتدهور فأصبح فريسة لغيره.

إلا أنـه لن يتحطم أبـداً. قد تمضي عليـه القرون وهـو في سبات عميق لا يـرى شمس التوحيـد خلف الغشاوة السميكـة فوق عينيـه. ولكن سـرعـان مـا تنقشع الغيوم، ويُشرق التوحيد أمامه. فيعود له يقينه، وتعود له رؤيـاه. عندئـذٍ ينهض رجل التوحيد من جديد ويبعث خليفة الله في أرضه.

